

ميلياغروس شاعر سوري أثر في أثينا والغرب

شاعر تعاطف مع الكليبيين وكرس حياته للقصائد والجمال



الحب والحياة والموت محور قصائد الشاعر

ولادته بأسلوب غير متكلف، وبالتالي غير مالوف في التقاليد الجنازوية. ففي خروجه هذا عن كلاسيسيكي نمط الإبيغراما التابينية، يصف الشاعر أسلوبه على أنها عابرة للحدود ومتعددة الثقافات، بدلا من التركيز على الهوية الهلنستية لديه:

«وجه صور الفاتنة
وأرض جدارا الطاهرة
جعلت منه رجلا،
شواطئ كوس
وكرام البيرويين
أكرموا شيخوخته».

وعليه، فإن ميلياغروس يؤكد هنا على انتمائه إلى مجموعة العظماء الشرقيين المغتربين عن مسافات رؤوسهم، والمستقرين في جزيرة كوس، وقد ذكر تلك المدن الثلاث: جدارا وصور وكوس، في إبيغرامين آخرين يركز في كل منهما على مرحلة محددة من عمره: فجداراهما عن مولده وطوفولته في جدارا، والأخرى عن شبابه في صور وكهولته في كوس. كما أن خلفيته الثقافية المستقاة من هذه المدن تنعكس بوضوح على خاتمة الإبيغراما الأخير هذا، حيث يحيى بتحية الوداع التقليدية بالسورية واليونانية والفينيقية، كما ولو أنه يحرص على تبادل المباركة والمحبة مع المارة من قبره مهما كانت ثقافته أو انتماؤه.

إن الجو متعدد الثقافات هذا يمكن تفسيره من خلال فهمنا مدى فخر ميلياغروس بهويته السورية من جهة، وتعاطفه مع تيار الفلاسفة الكليبيين في جدارا من جهة أخرى. وسواء أَمَا بان ميلياغروس كان متحدنا بالسورية (الإرامية) أو بالفينيقية بالإضافة إلى اليونانية، أو لم تؤمن بذلك، يبقى متوجهاً علينا في كل الأحوال أن نفهم هذه الأبيات من المنظور الحرفي والشخصي أيضا.

وحتى وإن توجه ميلياغروس بالسلام مؤدعا بالسورية والفينيقية واليونانية؛ فهو تذكارة منه لنا بأسلوب شعري بأنه إنسان ذو اواصر ارتباط شخصية مع كل من جدارا وصور وكوس. والأكثر من ذلك، أن تعدد لغات شاهدة قبر ميلياغروس ليس فقط عائداً إلى الجو العولمي في جزيرة كوس، بل هو أيضا مرتبط بتعدد لغات النقوش هناك بشكل عام، وإن معاينة النقوش على شواهد القبور السورية والفينيقية المنتشرة هناك تسلط الضوء على خلفية الدافع الذي حدا بميلياغروس إلى أن يتبع هذا الأسلوب.

ولكن، وعلى اعتبار أن الأنياب كانوا حاضرين في جزيرة كوس خلال الفترة التي قطنها بها ميلياغروس، فإن استعماله لكلمة "سلام" ضمن المعنى التوديعي، يذكر جمهوره بالطقس النبطي للتأبين، وكأنهم يودعون المتوفى ويفارقونه. الهدش هو استخدام هذه الصيغة النقشوية النمطية في مخاطبة أيّ مآر.

قصائده والمسماة بـ"قصيدة الربيع" مستوحاة بالدرجة الأولى من طبيعة جدارا والجولان عموما بسهولة وهضابه وربيعه الأخاذ والتنوع الحيوي الذي يسكن بيئته.

ويقتر الديري أنه لا يختلف اثنان في أن ميلياغروس هو الشخصية الهلنستية الأدبية الأكثر تنوعا ورشاقة في التعبير عن فنه بأدوات أدبية مختلفة، وهو في ذلك يتفوق على مجموعة من العظماء والمبدعين غير العاديين.

أشعار شواهد القبور

في مقالها ترى الباحثة أم لوز أن الشاعر ميلياغروس لجأ في العديد من المناسبات إلى أسلوب كتابة الشواهد الأبيات على شواهد القبور لكي يصف سيرته المهنية، وكأنها محفورة على قبره بعد وفاته. وفي إحدى الإبيغرامات هذه لجأ إلى أسلوب تحية المآر بقرب قبره طلبا لرد التحية والوداع من الدنيا، ولكن بطريقة مبتكرة غير مسبقة، حيث يودع ميلياغروس المآرين بقبره باليونانية ولكن ليست وحدها، بل أيضا بلغتين ساميتين:

«إن كنت سوريا: سلام»
«إن كنت فينيقيا: تيديوس»
«إن كنت إغريقيا: خاري».

وعلى الرغم من أن هذا السلام قد يبدو من الوهلة الأولى كخروج مسرحي استعراضي، في عزاء تابيني للذات، فإننا إذا تعمقنا في نماذج ميلياغروس الأدبية والتابينية، سنخرج برؤية أسمى وأوضح، تجعلنا نقدر هذه الصياغة أكثر، ونعجب بأصالتها ونقدر أسلوبها.

وتلفت الباحثة إلى أنه من المعتاد في تقاليد الدافن ونقش الشواهد التوجه بالصيغة الخطابية للمآرين بالقبور، ولكن القصيدة هنا هنا تمثل امتدادا أدبيا لتوجه معين، ونتيجة لتطور كاتب شعر الإبيغراما السابقين لميلياغروس. فقد سبق وحدث أن استعملت الأعراف التابينية لتطرح السيرة الذاتية للمتوفى، ويفترض أن ميلياغروس قد جاء تاليا هنا من هذه الناحية. فكانما هؤلاء الأدباء يتحدثون معنا عبر القبور التي نقش على شواهدهم إبيغراما من هذا النوع، كما لو أنهم يلخصون بشكل خيالي قصة حياتهم بتولها روحهم الهائمة في عالم الموتى.

وتقر أم لوز بان الفرق الهام يكمن في أن الإبيغراما هذه؛ كانت تصف حياتهم من خلال الحوارية التقليدية مع الغرب المآر من أمام القبر، في حين أن ميلياغروس قد وصف بالإضافة إلى الحوارية التقليدية، كالأ من المدن التي عاش فيها، وعمره الذي مضى، وذكر اسمه واسم وعائلته، وكان

لزاوية كانت مهمة في الإصدار السابق. ثم يقول «وفي البداية شرعت أترجم من كتاب الباحثين بيتر ويغهام وبيتر جاي للذين قاما بتقديم القصائد هذه في حلة شعرية إنجليزية منسرفة، كما أرفقا كل قصيدة بملحق يترجمها ترجمة حرفية من اليونانية. فعملت على فهم المعنى الحرفي للقصيدة اليونانية الأصلية، واستيقنت الروح الشعرية الإيقاعية من الإصدار الإنجليزي حتى توصلت إلى ترجمتي العربية».

ويضيف «بعد الانتهاء من الترجمة والمراجعة قمت بوضع عنوان لكل قصيدة يميز هويتها ويعبر عن روحيتها وفوحها، مما سهل عملية تقسيم القصائد إلى مجموعات وتفصيلها في فصول متباعدة من جهة الموضوع». وفي هذه المناسبة لا بد من التنبه بكتاب الدكتور إسمان الهندي «شعراء سوريا في العصر الهلنستي» الذي نشر فيه تعريفا مهما بشعراء وبنايات كثيرة من قصائده استقاهها من المصادر الفرنسية.

وذكر الديري أن ميلياغروس بن إبوقراطيس ولد حوالي العام 140 ق.م في جدارا، وهي مدينة تشرف من سفح جبل على بحيرة طبريا، ثم انتقل إلى مدينة صور الفينيقية على ساحل البحر المتوسط، حيث كبر وترعرع، لكنه أمضى شطرا كبيرا من حياته بعدها في جزيرة «كوس» اليونانية المقابلة لشواطئ آسيا الصغرى.

عاش شاعرنا عمرا مديدا، ويعد المؤرخون أنه قد ازدهر واشتهر في العصر السلوقي وما بعده، فمن المؤكد تاريخيا أنه كان معروفا في عهد سلووس السادس إبيفانيس نيقاطور والسدي حكم بين 95 ق.م و96 ق.م. وتوفي حوالي العام 70 ق.م عن عمر ناهز الـ70 عاما، ويمكننا تحري هذه السيرة ولمسها في قصائده الشعرية التي تحدث فيها عن حياته، فقد دون ثلاث سير ذاتية لنفسه بصيغة الإبيغراما، الأمر الذي استفرغه الباحثون لكثرتهم، ويفترض أنه قد كتبها في مراحل زمنية متباعدة من حياته.

جدارا هلنستية الثقافة، سورية الهوية، وعلى الرغم من كونها غير محورية من الجانب السياسي فقد كانت بمثابة أثينا السورية كما يقول الشاعر، امتدت حضارتها إلى الحقبة المسيحية في المنطقة، وكان لا بد من الشغراء والأدباء والفلاسفة والمجددين الخلاقين مثل ميلياغروس ومينيوس وفيلوديموس. ويبدو أن أهل ميلياغروس كانوا من ذوي اليسار، وهم سوريون يتحدثون أيضا باليونانية.

وعلى الرغم من عدم كتابة ميلياغروس باللغة الآرامية، فإن أصوله السورية تبدو جلية في أسلوب تفكيره وتعاطفه مع الأمور، ولعل واسطة عقد

الأستاذ عادل خالد الديري، الذي بذل جهدا بحثيا استثنائيا في المقارنة بين الترجمات المتعددة للوصول إلى روح النص، وقد وفق في ذلك أيضا توفيق. يذكر الباحث عادل خالد الديري كتاب الشاعر السوري ميلياغروس الجداري «إن كنت سوريا: سلام»: «والذي يبسو كالوردة الزرقاء في الإكليل الشعري الذي أبدعه السوريون خلال الحقبة الهلنستية الممتدة على ثمانية قرون، والسوريون هنا تشمل جميع سكان بلاد الشام في تلك الحقبة التي كانت فيها سوريا إقليما يسبح في فضاء حضاري غني، على امتداد شواطئ البحر الأبيض المتوسط».

ويضيف أنه «في سياق تحضيري للشروع في نقل ما تيسر لي من أعمال الشاعر ميلياغروس إلى اللغة العربية، انطلقت في بحث حثيث عن كل ما طبع ونشر عن الشاعر من أعمال، فجمعتها، ومن ثم قرأتها محاولا استكناه أسلوب الشاعر وفرداته جملة الشعرية، وأعترف بانني لم أصل إلى المعنى الكامن في معظم القصائد حين قرأتها في البداية، على الرغم من فهمي للكلمات المنصوصة، ولكن ومع المتابعة، بدأت شيئا فشيئا تتفتح معالم الأسلوب الذي اتبعه الرجل في توصيل صورته الشعرية، كما تتفتح بتلات الزهور».

ويتابع «فهمت أن الرغبة وإيروس (كيوبيد)، كما أن الحب وأفروديت (فينوس) وسيبيريس هن مترادفات متطابقة في مفهومه، تحل إحداهن محل الأخرى بكل أريحية، بغض النظر عن كونها تختلف من زوايا معينة في ذهن الآخرين. وقد عمدت إلى اعتماد الاسم اليوناني للإلهة التزاما بثقافة الشاعر الهلنستية مع بعض الاستثناءات القليلة، وأدركت أن اختلاف عصر وخلفية المترجمين من اليونانية القديمة إلى الإنجليزية قد دفعت كلا منهم إلى اعتماد مفردة منها، مما صعّب المهمة في البداية، وقد كانت عملية الترجمة هذه تراكمية وتصحيحية، فكلمة قرأت ترجمة مختلفة للقصيدة ذاتها تكون لدي فهم أصح

والأخيرا، يذكر خلف أنه لم يكن لهذه السلسلة، "سوريا الهلنستية"، إلا أن تزين إكليلها بقصائد هذا الشاعر العبقري الذي لا نكاد نعرف عنه، نحن قراء العربية والمتحدثون بها، إلا النزر اليسير اليسير، ولذلك احتل هذه الأولوية المقدمة في مشروع ترجمات السوريين الذين كتبوا باليونانية، خلال تلك الحقبة الغنية من التفاعل الحضاري.

الشخصية الأكثر تنوعا

على الرغم من أن ترجمة الشعر تفقد الكثير من خصائصه، إلا أن مضمون قصائد ميلياغروس ذا القيمة العالية، ساعد في احتفاظ قصائده بالكثير من القها حتى بعد نقلها إلى الإنجليزية والفرنسية، وأخيرا العربية على يد

لطالما كان المتوسط، واسطة العقد، ولبّ الكتاب، أينما مضيت في العالم، ومهما ابتعدت في الأرض ستجده في الطعام واللباس والعمارة واللغة. وتجده في الأغنية والرخصة وموسيقى المعبد. وكذلك في الخرائط والألوان. وتجده مقبلا عليك حينما وليت وجهك جهة الغرب، فأسماؤه وكتبته وأبطاله القدامى تجدهم في كل جهة من جهات الأرض أمثلة وأقنعة وحكايات للأطفال وأشعارا وأساطير. حتى لكأن الغرب لا يمكنه أن يتعرف وجوده إلا في مرآة الشرق. وهذا ما دفع مجلة الجديد إلى تخصيص عددها الأخير لعام 2020 للثقافة المتوسطية ورموزها.

منه من باب السخرية والمداعبة لا أكثر. لقد قبل السوريون والمصريون الثقافة الهلنستية بعد فتوحات الإسكندر، طوعا، وأضافوا إليها بعدا محليا فكانت الثقافة الهلنستية، التي جمعت روح سوريا ومصر، بفلسفة وأدب أتيكا، والتي عادت بدورها، (أي الثقافة الهلنستية)، لتؤثر من جديد في اليونان نفسها، ولتغير من وعيها الثقافي والحضاري لذاتها. في عملية تفاعل فريدة، قل نظيرها في تاريخ الحضارات.

ميلياغروس كان أحد هذه الرموز التي أثرت في الغرب اليوناني واللاتيني، والأوروبي في ما بعد، فعلى الرغم من أنه كان يستخدم اليونانية في كتابة قصائده، إلا أن انتماءه إلى روح وطنه الأول ظل حاضرا على الدوام في شعره، وظلت نزعته الإنسانية التي تلقاها في أكاديمية مدينته الفلسفية، دليله الذي لم يحد عنه طوال حياته، تلك النزعة التي ميزت أيضا شاعرا آخر، مواطنا له، أطلق على نفسه اسم محب الإنسان (فيلوديموس).

والغريب أن الكثير من المستشرقين الذين درسوا هذا المبدع؛ حاولوا تجريد طبيعة الحضارة السورية النابعة من العمق، والمنفتحة على الآخر، والتي عبر عنها خير تعبير، جداري آخر سبق شاعرنا بنحو قرنين من الزمان، ألا وهو الفيلسوف الساخر مينيوس (منيب)، إذ حذرت فلسفته الزاهدة وسخريته المحببة عميقا في روح شاعرنا الذي أعلن أكثر من مرة انتماءه إلى ذلك الفيلسوف.

والغريب أن الكثير من المستشرقين الذين درسوا هذا المبدع؛ حاولوا تجريد طبيعة الحضارة السورية النابعة من العمق، والمنفتحة على الآخر، والتي عبر عنها خير تعبير، جداري آخر سبق شاعرنا بنحو قرنين من الزمان، ألا وهو الفيلسوف الساخر مينيوس (منيب)، إذ حذرت فلسفته الزاهدة وسخريته المحببة عميقا في روح شاعرنا الذي أعلن أكثر من مرة انتماءه إلى ذلك الفيلسوف.

والغريب أن الكثير من المستشرقين الذين درسوا هذا المبدع؛ حاولوا تجريد طبيعة الحضارة السورية النابعة من العمق، والمنفتحة على الآخر، والتي عبر عنها خير تعبير، جداري آخر سبق شاعرنا بنحو قرنين من الزمان، ألا وهو الفيلسوف الساخر مينيوس (منيب)، إذ حذرت فلسفته الزاهدة وسخريته المحببة عميقا في روح شاعرنا الذي أعلن أكثر من مرة انتماءه إلى ذلك الفيلسوف.

والغريب أن الكثير من المستشرقين الذين درسوا هذا المبدع؛ حاولوا تجريد طبيعة الحضارة السورية النابعة من العمق، والمنفتحة على الآخر، والتي عبر عنها خير تعبير، جداري آخر سبق شاعرنا بنحو قرنين من الزمان، ألا وهو الفيلسوف الساخر مينيوس (منيب)، إذ حذرت فلسفته الزاهدة وسخريته المحببة عميقا في روح شاعرنا الذي أعلن أكثر من مرة انتماءه إلى ذلك الفيلسوف.

لندن - خصصت مجلة الجديد الثقافية اللندنية في عدد ديسمبر ملقا كاملا عن الثقافة المتوسطية، مقدمة فيه، مقالات ودراسات وقصائد مترجمة تضيء مجتمعة على علاقة الثقافة العربية بالثقافة اليونانية، لإسما في الحقبة الهلنستية التي كان للسوريين القدامى فيها الدور الطليعي المؤسس على مدار ثلاثة قرون متعاقبة منذ أن انتصر الإسكندر الأكبر على الفرس في سنة 332 قبل الميلاد، وحتى حلول الإمبراطورية الرومانية محل الإمبراطورية اليونانية سنة 30 ميلادية.

وضمن هذا الملف نجد ثلاثة مقالات عن الشاعر السوري ميلياغروس الذي عاش خلال الحقبة الهلنستية وترك تأثيرا بالغا في الثقافة اليونانية، والذي يجهله إلى اليوم الكثير من العرب.

شاعر الحب الكوني

يرى الكاتب والباحث السوري تيسير خلف أنه لا شك في أن طبيعة جدارا، تلك الكورة الصغيرة المتوزعة على ضفتي وادي البرموك، الشمالية والجنوبية، هي التي صاغت ذائقة الشاعر ميلياغروس، من كان طفلا، يجوس الوديان والهضاب المحيطة بمدينته، يعايب الفراشات، ويراقب القطعان المنتشرة على السفوح؛ وهي تلتهم العشب، على نغمات شبابه الراعي.

وربما، قضى أوقاتا طويلة وهو يعد أنواع الأضامير البرية المنتشرة على سد البحر، أو يراقب، من مسرح مدينته، بحيرة طبريا، وأشعة مراكب الصيادين التي تنهدى على صفحة مياهها، وفي الأفق جبل الشيخ المكلل بالثلوج طوال العام.

ميلياغروس هو الشخصية الهلنستية الأدبية الأكثر تنوعا ورشاقة في التعبير عن فنه بأدوات أدبية مختلفة ومتجددة

ولا بد أنه زار البناييع الحارة في الحلة، واستحجم بياهاها الدافئة مع معلميه ورفاقه في الأكاديمية، حين كان فتى يافعاً، وهناك حدثهم المعلم عن عجائب إسكولاببوس في شفاء المصابين بالعلل المزمنة.

ولفت خلف إلى أن هذه الصور التي لا تزال حقيقة نابضة، في أم قيس الأردنية، والحة السورية، سوف مدينتها مرسومة بعناية في قصيدته الخالدة "الربيع"، ملهمة الكثيرين بعده، من شعراء وفنانين تشكيليين حاولوا مقارنة تلك الروح النابضة الوثابة التي أبدعت وصفا غير مسبوق لقدم فصل الحب والحياة والجمال.

مشددا على أن سوريا كوطن لم تكن غائبة عن قصائد الشاعر الذي حطت عصا الترحال به في جزيرة كوس اليونانية، ليس كذاكرة تخيلية فحسب، بل كوعي حضاري ومضمون إنساني أيضا يحفظ كلمة سر سحرية تقال في المناسبات كافة، في قبة الاحتفال، وفي لوعة الحزن والفقد، في لقاء القريب، وتحية الغريب، وفي الوداع، إنها كلمة سلام، التي أودعها شاعرنا كما هي، بلفظها المحب، في قصيدة عظيمة من قصائد هذا الكتاب.

ويذكر خلف أن ميلياغروس عاش حياته للشعر والحب ولتأمل الجمال وابتكار الصور الغريبة التي لم يالفها شعراء زمانه، ولم يسع طوال حياته إلا إلى كسب قلب امرأة أعزم بها، أو اقتناص صورة جميلة، أو اختزال مشاعره بضع كلمات حول صديق غاب إلى الأبد. وحتى حين كانت تغادره إحدى النساء اللواتي أحبهن، إلى رجل آخر، تجده يتمنى لها السعادة مع عاشقها الجديد، فقلبه لا يقوى على الغل والكراهة، فحتى عباراته التي توحى بالحدق والانتقام، تخرج

